(٧)
كلنا سياسيون*

صديق قارىء كريم من أولئك الأعزاء الذين يتفضلون علىّ بسطور تحية أو سطور توجيه. ونصح كريم ، وكل قارىء عندى صديق ذو فضل ، فإن الكاتب بقرائه ، فلا كاتب بلا قراء ، وأجمل الحوار وأعوده بالفائدة هو ما يكون بين الكاتب وقرائه. ومادام القراء يكتبون فهم يدخلون فى زمرة الكتاب سواء أكانت الكتابة همهم أم لم تكن ، وهم أصحاب فضل دائما ، فنحن بهم والصحيفة صحيفتهم ومن أجلهم تكتب وتنشر ، وبفضلهم تكون لها مكانتها فيما ينشر على الناس.

الصديق يسألنى: لماذا لا تكتب فى السياسة؟. لماذا لا تستعمل قلمك فى علاج المشاكل السياسية التى تهم مصر وعالم العرب والمسلمين؟

وجوابى أيها العزيز هو أننى لا أكتب إلا فى السياسة!. وسواء كتبت فى أمور المجتمع والناس أو فى الأدب أو فى التاريخ. فإننى أكتب فى السياسة وأنا أولا وأخيرًا رجل سياسى.

ذلك أن السياسة أيها العزيز تغير شكلها ومعناها وتبدلت أهدافها وأساليبها فى العصر الراهن. فلم تعد السياسة ميدانًا مقصورًا على ناس دون ناس من أبناء الأمة أو من عامة البشر ، ولم يعد الكاتب السياسى هو الرجل الذى وقف نفسه على صراع السياسة وأعمال الأحزاب والتنافس على السلطان ، ولم يعد الكاتب السياسى هو صاحب القلم الذى يرصده للخوض فى مشاكل السياسة والدفاع عن الأحزاب والآراء أو مهاجمتها ، بل لم يعد الكاتب السياسى هو وحده الذى يدخل فى معارك الحكم مؤيدًا

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٢ أغسطس ١٩٨٢م .

أو مخذلاً. بل ربما كان ذلك الكاتب المتخصص فى معارك اليوم والساعة هو أبعد الناس عن إدراك المعانى الجديدة للسياسة وأسلوب العمل السياسى فى عصرنا الحاضر ، لأن العمل السياسى كله تغير تغيرا حاسما بعد الحربين العالميتين الكبيرتين.

ذلك أن السياسة كانت فى الماضى هى فن الوصول إلى السلطان بالحيلة والمهارة أو القوة ، ثم البقاء فى مركز القوة والسلطان أطول مدة ممكنة. وكان السياسى لهذا يسمى داهية أى مصيبة تنزل بالخصوم. ومادام السياسى داهية فإنه لم يكن للأخلاقيات أو الفضائل مكان كبير من اهتمامه، فهو طالب حكم وسلطان ، ووظيفته هى الوصول إلى السلطان والبقاء فيه والإفادة منه بكل سبيل ، ويقتضى هذا منه الدفاع عن نفسه وما يدعو إليه بالحق فى قليل جدا من الحالات وبالباطل فى معظم الحالات ، ويتضمن هذا تسفيه آراء خصومه وتشويه سمعتهم والقضاء عليهم إذا تيسر ذلك بأى سبيل. ولهذا كان السياسيون فى الماضى يستحلون كل محرم مادام ذلك يعينهم على الوصول إلى القوة ، فإذا وصلوا إليها حللوا لأنفسهم ما كانوا يحرمونه على غيرهم. وكانت المهارة عندهم هى الحصول من وراء السلطان على أكبر قدر من المكاسب والمزايا يختصون بها أنفسهم وذويهم من الأهل والأنصار ، وفى أخبار أهل السياسة فى تاريخنا الماضى وفى تاريخ الدنيا كلها أشياء وأعمال تثير فى النفس العجب والسخط معا ؛ لأن السياسيين كانوا فى الماضى شراذم من المرتزقة الذين يتصارعون على سيادة الناس ويتنافسون فى جمع المكاسب والتباهى بخداع الناس وتضليلهم ، والكاتب الفرنسى المبدع أندرية موروا يورد فى كتابه الطريف: أحاديث الكولونيل براميل كلاما يندى له الجبين ينسب إلى الداهية السياسى الفرنسى جورج كليمانصو ، فقد كان هذا الرجل يخطط لينشىء فى معاهدات الصلح بالاشتراك مع سياسى مصيبة مثله هو

جورج لويد رئيس حزب الأحرار الإنجليزى سلسلة من الدويلات الصغيرة على ساحل البلطيق هى فنلندا ولتوانيا ولتفيا واستونيا. وظيفتها هى منع روسيا من الوصول إلى البحر البلطيقى والسيادة عليه ، وقيل له : وهل أنت مؤمن بهذه القوميات وحقها فى أن تكون دولا ذات سيادة؟ فقال: إنها ليست مسألة حق أو إيمان ، إنما هى مصالح فرنسا! ويقول الكولونيل براميل فى مناقشته وهذا الموضوع الذى سمع به وهو فى الخنادق قبل نهاية الحرب.

– لا أظن أن مصلحة فرنسا تكمن فى إنشاء دويلات صغيرة ووضعها أمام روسيا ، لأن روسيا إذا أرادت استطاعت أن تقضى عليها.

فقال كليمانصو: أنا أعرف أن روسيا لن تصبر على بقاء هذه الدول طويلا ، وأعرف أنها ستنتهز أول فرصة لإزالتها من الوجود ، بل لا استبعد أن تقضى على أهلها إلى آخر رجل. ولكن هذا لايهم. المهم أن روسيا إذا أرادت ذلك احتاجت إلى وقت ، واضطرت إلى خوض معارك مع أهل هذه الجمهوريات وإلى أن تقضى عليها كلها نكون قد كسبنا وقتا وجمعنا قوتنا لمواجهة روسيا.

– أى أنك تعرف أنك تضع هذه الشعوب الصغيرة فى وجه المدافع.

– أجل أعرف. وصراع السياسة كله مدافع أمام مدافع. القوة لن يسكت مدافع العدو قبل أن تسكت مدافعه هو.

– ولكن روسيا لابد أن تزيل هذه الدول فى يوم ما. إن روسيا دولة كبيرة وشعب ضخم. وهى لن ترضى طويلا بوجود هذه الدول التى تحرمها من البحر ، وفى يوم قريب ستزيل هذه الجمهوريات المسكينة بالمدافع.

– عندما يحدث هذا فإن مدافع روسيا لن توجه إلى فرنسا. بل إلى لتوانيا ولتفيا واستونيا ، هذا أولا ، أما ثانيا فهو أن هذا لن يحدث فى

حياتى ، أى أن المشكلة لن تكون مشكلة جورج كليمانصو. بل مهمة من سيأتى بعد كليمانصو.

وهز الكولونيل براميل رأسه وقال:

– ولمثل هذه السياسة الدموية الأنانية أحارب أنا وأموت.

– أيها الكولونيل أنت جندى ، والجندى وظيفته أن يقاتل ويموت.

– وقد ينتصر!

– لا.. الذى سينتصر فى هذه الحالة هو جورج كليمانصو.. أنت تموت وكليمانصو ينتصر.. هذه هى السياسة..

□□□

لقد انتهى العصر الذى كانت السياسة فيه تجرى فى المسائل والأزقة التى يدفعها فيها رجال من أمثال جورج كليمانصو. مضى عصر مترنيخ وبسمارك وتشيرشل ومن إليهم من الدهاة الذين كانوا يلعبون بمصائر الدنيا ويعبثون بحياة الناس. ليقال بعد ذلك إنهم عباقرة. لقد سيطر كليمنس لوثار مترنيخ على مصائر أوروبا – والعالم بالتالى – أكثر من نصف قرن. كان أيامها يلعب بالناس لعبا. من ١٨٠٦م إلى ١٨٥٩م كان هذا الرجل الثعلب يحرك الناس والجيوش بالكذب والدهاء دون أن يفكر قط فيما يمكن أن تؤدى إليه سياساته من تعاسة البشر وموت الملايين: فى سنة ١٨٠٧م قال الناس إنه عبقرى السياسية الأوروبية لأنه تمكن من عقد معاهدة سلام بين فرنسا والنمسا فى فونتينبلو ، وبعد سنوات قلائل عندما ظن أنه أتم تسليح جيشه انقلب على نابليون ، وسار إليه نابليون ليؤدبه ، وفى معركة واجرام قتل أكثر من ١٢٠ ألف جندى على الجبهتين وأصيب بعاهات نحو نصف المليون ، وتخربت طول طرق الجيوش عشرات القرى والمدن. لأن التقليد فى ذلك العصر كان يبيح للجيوش المارة كل القرى والمدن التى تمر بها.

حقا كانت هناك اتفاقات دولية تحمى المدنيين من عبث الجيوش ، ولكن من يسمع ومن يطيع ! . والجندى الذى يرسله أبالسة السياسة ليحارب معارك لا ضرورة لها كان إنسانا تعيسا مرتزقا يبادر أى فرصة للهو والنهب يمر بها فى طريقه . لأنه يعرف أنه إذا مات أو جرح فلن يأسى عليه إلا امرأته. وأولاده فى بلده إذا كان متزوجا. وعندما يمر الجيش بقرية كان القادة هم أول من ينهب ويفتك بالنساء. ويقول المؤرخ الإنجليزى بالأكلاف: إن الجيل الذى ينشأ فى القرى والمدن التى كانت تمر عليها الجيوش لابد أن يكون بالضرورة جيل أولاد سفاح ، وفيينا التى يقال إن مترنيخ جعلها أكبر عاصمة فى أوروبا فى أيامه أصبحت نتيجة لسياسته أكبر ماخور فى أوروبا. كان سكان البلد نحو مائة ألف من بينهم ٢٠ ألف مومس وأكثر من ٤٠٪ من السكان أصيبوا بالأمراض الجنسية. وأثناء انعقاد مؤتمر فيينا من سبتمبر١٨١٤م إلى يونيو ١٨١٥م كان مترنيخ يختال كأنه الطاووس ، فقد دعا كل رؤساء أوروبا وملوكها للاشتراك فى المؤتمر ، وأوصى لرئيس البوليس أن يغمض عينيه عن بيوت اللهو والعبث والكثير منها كانت تنفق عليها الدولة حتى يسهر أعضاء المؤتمر ويشربوا إلى الصباح. وفى الجلسات لا يكون هناك إلا خشب مسندة توافق دون أن تدرى علام توافق. لقد كتب أديب مشهور يغيب عنى اسمه الآن رواية مشهورة بعنوان: المؤتمر يلهو (Le congres s'amese) ومن مشاهدها هذه الجلسة خطيرة كان سيتقرر فيها مصير الالزاس واللورين ، وفى هذه الجلسة لم يحضر فى الموعد إلا مندوب واحد هو مندوب قبرص التى كانت بعيدة جدا عن الموضوع وكانت قبرص تحت السيادة العثمانية ، ولكن الذى كان يمتلكها كان فارسا من فرسان القديس يوحنا الذين طردهم المماليك ثم الأتراك من الجزيرة ، أى أنه كان مندوبا غير رسمى أو شرعى أو معترف به ، ولكن مترنيخ أتى به ليسخر منه ومن الدنيا ، وعندما اكتمل نصاب الجلسة حوالى الظهر كان مندوب قبرص قد أغرق فى النوم فى كرسيه من طول الانتظار ، وأيقظوه ليوقع.. ووقع وهو نائم.

عبث! عبث بالناس وبالقيم وبالأخلاق.

وهذه هى سياسة الدهاء والمكر والخداع.

عبث يؤدى إلى حروب. وحروب تؤدى إلى سعادة كاذبة لعدد قليل جدا من الناس وتعاسة بقية الإنسانية.

هذا المفهوم للسياسة انتهى اليوم.

لأن السياسة أصبحت اليوم علم المحافظة على وطنك وأوطان الأخرين أيضًا. لأن الدنيا ضاقت وأصبحت - أردنا أو لم نرد بلدًا واحدًا ، وفساد محصول القمح فى كندا نحس به فى مصر ، وأستاذ الجامعة الذى يجرى تجاربه فى معامل جامعة فى الولايات المتحدة يخدم المرضى فى الهند فى نفس الوقت. والحروب أيا كانت دوافعها أصبحت - فيما عدا حروب التحرير - جرائم لأن الدنيا كلها تتحمل تعويضات الحروب وخسائرها ومصائبها وإصاباتها ، ولم يعد يحلم بالحروب ويسعد بالحروب إلا بعض المهاويس فى الفيتنام والحاقدون الذين تفيض قلوبهم ببغض البشر جميعا فى إسرائيل ، ومن فى الدنيا ياناس يقول إنه لكى نأمن حدود إسرائيل لابد أن تخرب بيوت؟ ومن فى الدنيا يرضى ضميره بأن تضرب الأحياء السكنية بقنابل البارود والغاز السام والشظايا ؟ قنابل وزن الواحدة ١٠٠ كيلو جرام بداخل كل منها مئات القنابل الصغيرة والشظايا ، فإذا انفجرت القنبلة الكبيرة تناثرت القنابل والشظايا لتصيب الألوف فى مساحة شاسعة، وألوف تستقر فى أجسامهم وعيونهم الشظايا ويموتون على مهل ويحسب رجال إسرائيل أنهم بهذا يؤمنون أنفسهم.. أحلام سوداء فى رءوس سوداء.

وقلوب ميتة فى صدور من حجر.

وهذه يسمونها هناك سياسة.

لقد كان ساسة إسرائيل يقولون إن العرب يخططون للقضاء على إسرائيل. وتبين الآن أن الذين سيقضون على إسرائيل هم إسرائيليون.

□□□

السياسة اليوم هى حصيلة إنتاج الأمة كلها. واستخدام هذه الحصيلة لصالح كل أفراد الأمة. فإذا بقى شىء استخدم فى صالح بقية البشر.

ووظيفة المسئولين عن سياسة البلد هى مساعدة كل مواطن عامل على أن يعمل على أحسن صورة ممكنة وينتج أفضل إنتاج ممكن. ثم استخدام حصيلة الإنتاج الجيد فى كل ميدان لخدمة البلد كله.

والسياسى اليوم لا يحكم ولا يسطر ولا يتصرف فى الناس. بل وظيفته أن يرسم الخطط مستعينا بأحسن عقول وطنه. ثم التنسيق بين العاملين والمنتجين لكى تزداد الحصيلة ثم توجيه هذه الحصيلة فيما يعود على المجموع بالخير.

إنه لا يحكم بل ينظم وينسق. وقد قرأت ملخصا لأعمال مؤتمر للعمل نظمته منظمة العمل الدولية فى باريس فوجدت أن أعمال المؤتمر كلها تتلخص فى لفظين: التنظيم والتنسيق: ordination et coordination .

فرئيس الوزراء فى الحقيقة لم يعد حاكمًا ، إنما هو رئيس عمال. وكل المواطنين عمال. فأنا عامل والطبيب عامل والمهندس عامل والوزير عامل والميكانيكى عامل والذى يكنس الشارع عامل. كلنا سواء فى خدمة البلد. كلنا مطالبون بالإتقان والإخلاص لخدمة المجموع.

لقد أعجبنى جدا مقال كتبه ذات مرة أستاذ كبير من أساتذة هذا البلد هو المرحوم الدكتور أمين أبو العينين أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة القاهرة أولاً ثم رئيس تحرير الاجيبشان جازيت بعد ذلك قال فيه: إن الزبال من أهم رجال هذا المجتمع ، إنك لن تحس إذا توقف عن العمل

كل وكلاء الوزارات والمديرين العامين الذين يسكنون فى شارعك ، ولكنك قطعا ستحس إذا توقف الزبالون عن العمل يومًا واحدًا.

من ذلك اليوم وأنا أدعو بالصحة والعافية لكل عمال النظافة الذين يعملون فى شارعنا وما من مرة رأيت عربة القمامة بحماريها الصغيرين الطيبين إلا شعرت بالمحبة والعطف نحوهما.

إن عامل النظافة والحمارين اللذين يجران العربة الهالكة يؤدون لنا جميعا خدمة لا تستغنى عنها أبدا.. فهم - بما فيهم الحماران - مواطنون صالحون يقومون بعمل إيجابى نافع. ولو أن كل مواطن عندنا قام بمثل العمل الذى يقوم به هذان الجحشان لكان حالنا غير الحال. يكفى أنهما يزيلان الأقذار التى يلقيها الناس ، نحن نضع القمامة وهم يزيلونها ما رأيك؟..

□□□

فى عصرنا هذا أصبح كل جهد قومى سياسة أيا كان ميدانه. فالمدرس الذى يقوم بعمله فى الابتدائى أو الإعدادى أو الثانوى سياسى. فإذا قام بعمله قياما حسنا فهو سياسى ناجح وإذا لم يقم بعمله حسنا فهو سياسى ضار بوطنه. وأحيانا يكون خائنا للأمانة..

ووزير التربية والتعليم - وهو بحكم وظيفته من رجال السياسة - لا يمكن أن يكون سياسيًا ناجحًا إلا بالقدر من الإتقان والدقة اللذين يقوم بهما المدرسون الذين يعملون فى وزارته. والحقيقة أن السياسيين الحقيقيين هم المدرسون والنظار والإداريون. والوزير ليس إلا منظمًا ومنسقًا فإذا لم يكن لديه ما ينظمه ولا ما ينسقه. فكيف يكون سياسيًا ناجحًا أو غير ناجح؟ وأستاذ الجامعة أيا كانت درجته وميدان تخصصه رجل سياسة وعمله

سياسة ، حتى إذا كان ميدان تخصصه بعيدًا جدًا عن السياسة مثل الرمد مثلاً أو التاريخ اليونانى القديم.

ويقولون لك: إن وظيفة رئيس الجامعة وظيفة سياسية. وهذا حق ولكن الأصح منه أن يقال: إن أعضاء هيئات التدريس فى كل الكليات سياسيون لأن حصيلة أبحاثهم ودراساتهم ترفع - أو تخفض - مكانة مصر بين الأمم.

وأنت ترى هذا بعينيك فى المؤتمرات الدولية.

هناك ترى الأساتذة يتبارون فى رفع مكانة أممهم بما يقدمون من أبحاث وبما يحتلون من مراكز..

أذكر أننى حضرت مرة مؤتمرا من مؤتمرات اليونسكو. وكان لنا أن نتكلم بالإنجليزية أو الفرنسية. فاخترت الفرنسية. وفى ثانى يوم من أيام المؤتمر تلقيت دعوة للغداء من وزير الثقافة الفرنسى لمجرد أننى فضلت الفرنسية على الإنجليزية. إنها عنده موضوع سياسى. كلما زاد عدد المتكلمين فى المؤتمر بالفرنسية كان ذلك كسبًا لفرنسا. فما بالك إذن إذا كانت الأبحاث التى يتقدم بها الفرنسيون هى أهم الأبحاث..

إن فرنسا تقوم بنشر أى كتاب جيد يؤلفه أى رجل من أبناء مستعمرات فرنسا السابقة على نفقتها. هذه البلاد تدخل ضمن نطاق الثقافة الفرنسية. وفرنسا تعتبر أنها تكسب فى الميدان الدولى إذا ألف رجل من أهل السنغال أو غينيا أو ساحل العاج كتابا جيدا فى أى ميدان. هذا عندهم نصر سياسى فرنسى ، ولهذا فهم يقومون بنشره على نفقتهم وخاصة إذا كان المؤلف أفريقيا. ولسان حالهم يقول: نحن أمة عظيمة لأننا علمنا شعوبا كثيرة كيف تؤلف وكيف تكتب، وهذا هو البرهان ، إنهم يفخرون بذلك كما يفخرون برواج الصناعات الفرنسية.

وهل علمت أن سياسة الجنرال ديجول التى كانت تؤيد البلاد العربية أدت إلى سيطرة السيارات الفرنسية على ميادين النقل فى البلاد العربية فترة طويلة من الزمن.

إن الحكومات اليوم تسّاهم فى الإعلانات الدولية عن منتجات بلادها. وأنت عندما تقرأ إعلانًا بالألوان يحتل صفحة كاملة عن الخطوط الجوية للدولة الفلانية. فلابد أن تعرف أن الدولة تساهم فى أجر هذا الإعلان ، والحكومة الفرنسية تساهم فى أجور إعلانات العطور الفرنسية والاتحاد السويسرى يساهم بأكبر نصيب فى الإعلانات عن الساعات السويسرية فى الصحف العالمية.

كلها اليوم سياسة.

كل عمل متقن هو سياسة جيدة. كل بضاعة جيدة سياسة. كل رواية ناجحة سياسة إيجابية ، وكل رواية فاشلة هابطة سياسة ضارة.

وهل تتصور أن رواية مجنون ليلى لشوقى ليست سياسة؟ بل هى فى صميم السياسة. وكل نسخة تباع منها دعوة لمصر. وكل رواية من مسرحيات شوقى تقرر فى مدرسة عربية دعاية سياسية لمصر. لأن المدرس يعرف أن المؤلف مصرى والشعر عبقرية مصرية.

وكل الذين يظنون أنهم يكسبون إذ يؤلفون روايات كلها حقارات وسخافات وجرى على المسرح ونكات بذيئة سياسيون يضرون بلادهم. وأشياء مثل «الذين خرقوا القرش» أو «الناس اتلحست» أو «أنا أشطر منه» هؤلاء جميعا سياسيون ضارون لأنهم يسيئون إلى سمعة مصر ويضرون بوزن مصر فى ميدان الفكر والذوق والأدب.

□□□

ثم يسألنى القارئ لماذا لا تكتب فى السياسة؟

بل أنا أكتب فى صميم السياسة وأنا عندما أمسك القلم لأكتب أذكر دائما أننى مصرى وأن هذا القلم مصرى وأن ما سأكتبه سيحسب على

مصر. وما من مرة أتيحت لى فيها الفرصة للعمل فى بلد عربى أو غير عربى إلا وضعت فى ذهنى أولاً أننى عربى وأننى بهذا العمل لابد أن أخدم العروبة أولاً ومصر ثانيا. إننى لا أنسى قط أن اسم مصر مرتبط بما أعمل أنه لا يجوز لى أن أدخل فصلاً دون إعداد جدى متقن. ولا أؤلف كتابًا إلا إذا كان جديرًا باسم العروبة وشرف المصرية.

وهل تتصور مثلاً أن الموسيقى محمد عبد الوهاب لا يعمل فى السياسة؟. إنه يعمل فى صميم السياسة وهو سياسى من الطراز الأول. وكل لحن جيد وضعه وغناه ، إنما هو عمل سياسى ينفع مصر.

وأم كلثوم؟ ألم تكن سياسية؟

لقد كانت سياسية فى الصميم. وصوتها المصرى وأغانيها العربية كلها دعوة لمصر وتأييد لمصر ورفع لسمعة مصر..

لقد كتب عباس محمود العقاد فى السياسة ربما ألوف المقالات. كتب مع الوفد وضد الوفد وكتب ضد الملك وضد الاستعمار ونصف عمره ضاع فى العمل السياسى المباشر..

ولكن مساهمة العقاد فى السياسة هى بالذات مؤلفاته غير السياسة.

العبقريات وابن الرومى وسعد زغلول حتى كتابه عن توماس جيفرسون الأمريكى عمل سياسى مصرى. لأنه يدل أهل الدنيا على أن من أبناء مصر من يكتب كتابة ممتازة فى تاريخ الولايات المتحدة.

وتتجلى لك قيمة العمل السياسى للعقاد عندما ترى كتبه تقرر فى المدارس العربية وتطبع بالألوف ويقرأها ألوف التلاميذ ويشرحها مئات المدرسين ، لأن العقاد بكتاباته يجدد الثقة فى العبقرية الفكرية العربية ويقول للدنيا: إن اللغة العربية لغة متجددة الحيوية ، وأكبر كاتب عربى ليس الجاحظ الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى.

بل عباس محمود العقاد الذى عاش وكتب فى القرن العشرين. وعباس العقاد مصرى من أبناء أسوان.

لا والله ، إنما هو من أكبر السياسيين فى تاريخ مصر الحديث مع أنه لم يكتب فى السياسة حرفا ، ولا كان مرة وزيرًا أو عضو مجلس شعب.

إنما عمله فى المسرح هو الذى يجعله من أكبر بناة الحضارة العربية فى القرن العشرين ، ومسرح رمسيس أعظم ألف مرة من معاهدة ١٩٣٦م التى اشترك فى التوقيع عليها كل جهابذة السياسة المصرية فى ذلك الحين وقتلوا فيها دون رحمة ثورة من أجل ثورتنا هى ثورة ١٩١٩م.

وهل تذكر الحفلة الأخيرة فى مباريات كأس العالم لكرة القدم هذا العام ١٩٨٢؟ من كان هناك؟

ألوف الناس طبعًا.

ولكن هناك أيضًا سان روبرتينى رئيس الجمهورية الإيطالية وهلموت شميت مستشار ألمانيا الاتحادية.

ولماذا كأنا هناك؟

لأنها سياسة. إنها كرة ، هذا صحيح ، ولكنها سياسة ، وهذا أصح ، وكل هدف أصابه روسى كسب ومجد سياسى لإيطاليا.

وكل هدف أصابه رومنيكى كسب ومجد سياسى لألمانيا.

لقد شهدت هذه المباراة فى التليفزيون وسمعت صوت الرجل العظيم الكابتن لطيف وكنت أحس فى كلامه أنه يشاركنى إحساسى بالحزن والخجل الذى كان يملأ نفسى.

لأن الكابتن نفسه هو الذى أذاع بصوته مباراتنا مع المغرب حيث انهزمنا وهبطنا براية مصر.

إننى أذكر صوت هذا الرجل ، وهو يذيع مباراة مصر والمغرب وهو يكاد يبكى. لو استطاع هذا الرجل أن يقفز من مكانه ويعود إلى الملعب ليضع هدفا لمصر لفعل. ولكنه لا يستطيع مضى عصر جيله العظيم الذى كان يرى أن الكرة أهداف ، وأن كل هدف يصيبه مصرى. إنما هو نصر لمصر ، نصر سياسى حقيقى.

ومصر ما هى؟ أليست هى المصريين؟

والمصريون ، ما قيمتهم لمصر إذا لم يعزوها ويرتفعوا باسمها ويكرموها ، ويا خيبة الأمل فى أولئك الذين يقولون اليوم: ليس المهم أن تفوز بل المهم أن تشارك!

يا للخجل!

المهم هو أن نذهب إلى المباريات الدولية لكى نخسر وننحنى ويصعد الآخرون على ظهورنا ليرفعوا أعلام بلادهم.

وعلمنا أيها السادة أين هو؟

ثم يعودون إليها منهزمين وقد أساءوا إلى علم مصر وسمعة مصر. لكى يزعموا أنهم مازالوا أبطالا بل نجوما.

والنجوم فى أيامنا هذه توجد فى التراب.

وفى مكان الفنان نجيب الريحانى الذى رفع اسم مصر إلى السماء رجل يقول إنه نجم وإنه تلميذ الريحانى وأشياء يندى لها الجبين. لقد رأيت هذا النجم متجردا من ملابسه فى إحدى الروايات وداخلا فى برميل وهو يقفز كالمعتوه ويقول: يا طاطا.. يا طاطا..

هذا هو النجم الذى يواصل رسالة الريحانى. لقد بدأ الريحانى عمله مهرجا اسمه كشكش بك وختمه فيلسوفا عظيما. وهؤلاء يبدأون عملهم

مهرجين ويتدهورون بعد ذلك إلى متسولين. أين توجد السماء يا قوم اليوم؟ فوق أم تحت.

السياسة اليوم ليست دهاء معاوية أو حيل المغيرة بن شعبة ولا هى سيف الحجاج ولا مذابح أبى العباس السفاح..

لقد كان عبيد الله بن زياد ابن أبيه من أكابر رجال السياسة فى العصر الأموى. ولكن هذا الرجل قتل الدولة الأموية يوم دبر مذبحة كربلاء فى المحرم ٦١هـ وشق عالم الإسلام إلى نصفين. ولولا مذبحة كربلاء لما أخذت حركة الشيعة هذا الشكل السياسى الخطر الذى لا تزال أمة العرب تعانى منه. وإذا كنت تسمع عن أهوال حرب العراق وإيران فاذكر أن هذه الأهوال هى عن عمل سياسيين محترفين يبدأون عند معاوية بن أبى سفيان وينتهون عند آية الله الخمينى. ومدافع الخمينى أطلقها زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد بن أبيه من ثلاثة عشر قرنا. ومدافع صدام حسين وضع بارودها الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ملأ قلوب موالى الفرس حقدا على العرب من ثلاثة عشر قرنا كذلك.

أتدرى من هو أكبر رجل سياسى فى العصر الأموى هو سفيان الثورى ، هو سفيان ابن عيينه ، هو ربيعة الرأى ، هو كل عربى ومسلم خدم هذه الأمة بعلمه وجهده وإيمانه هؤلاء العلماء هم الذين بنوا العالم العربى والإسلامى. والذين هدموه ومازالوا يهدمونه هم رجال السياسة والحرب.

وإذا سألتنى: من هم أعاظم رجال السياسة فى عصرنا هذا قلت لك: هم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وطلعت حرب وعلى إبراهيم ومن فى طبقتهم. إن توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وطلعت حرب وعلى إبراهيم لم يكونوا يوما من الأيام وزراء ، ولا خطر ببالهم أن يكونوا وزراء أو أعضاء مجلس نواب ولكنهم وجهوا سياسة مصر

بأحسن وأقوى وأسلم مما فعل رجال السياسة المحترفون. هم الذين وضعوا مصر فى الموضع الذى تحتله فى تاريخ الحضارة العربية المعاصرة.

لأن السياسة لم تعد لعبة السياسيين يحيلها ودهاتها وخبثها. بل أصبحت العمل الإيجابى الذى يفيد البلد الذى يخدم المجموع ، لقد زرت دمياط منذ شهور ورأيت مصنع أحذية صغيرا ، الرجل الذى يملكه ويتولى العمل فيه صانع مصرى مجيد. إن كل إنتاجه يصدر للخارج وبضاعته محجوزة لسنوات قادمة. لقد كنت يومها مدعوا للغداء عند واحد من كبار القادة السياسيين فى دمياط يومها تغديت مع صاحب هذا المصنع وأحسست وأنا معه على المائدة أننى مع أعظم رجال السياسة فى تلك المحافظة. يومها أعطونى نشرات دعاية سياسية كلها تفاخر وتعاظم. تركتها كلها.

وأخذت معى زوج أحذية عظيما حقا. لم آخذه هدية بل أسعدنى أن اشتريه وأدفع ثمنه لأننى لم أشأ أن أكون أقل مساهمة فى سياسة بلدى من صاحب المصنع العظيم ، هو يجيد الصنع ويكرم اسم مصر وأنا أدفع ثمن الصنعة المتقنة وأحس أننى أقوم بنصيب متواضع فى سياسة مصر.

□□□

هل عرفت الآن يا قارئى العزيز أننى لا أكتب إلا سياسة.

وهل توافقنى على أنك عندما تتقن عملك وتراعى مصر فى كل ما تعمل وتنظر إلى الله سبحانه فى كل ما تتولى من أمر فإنك سياسى عظيم. □